20 نهضـة العاشــر

بلغنا أن زاهدًا كان كثير الوصية والنصح لأصحابه، يروي لهم كل يـوم طرفا من تجاربه في الحياة وتأملاته في طبائع النفوس، فلما أنهى حديثه قال له مقدم أصحابه: لو أوجزت أيها الشيخ معناك في جملة تكون لنا شعارًا!

فقال الشيخ: نعم، أفعل.

فقام، وكتب على الجدار الذي يجلسون عنده، بخط كبير:

(لا تمضوا في طريق اليأس، ففي الكون آمال، ولا تتجهوا نحو الظلمات، ففي الكون شموس).

ثم انصرف.

فكانت الشعار.

حكمـة تـضع نفـسها أمامنـا مـع انتهـاء استعراضـنا للأنـوار الثلاثـين المختارة، تشير إلى الاكتشاف الذي لابد أن يصل إليـه كـل مـشتغل بتربيـة النفوس ومعامل لها.

حقيقة يراها الجميع.

أن بعض النفوس تستلذ اليأس، وتعشق الظلام، لكن الأمل من حولهـا واسع، والنور غامر.

ولذلك وجبت هذه الربتة الخفيفة على كتف المطرق المطـأطئ الملتفـت، تنبهه إلى سكينة قريبة منه لو تناوش، وهالة جميلة فوقه لو رفع رأسه ونظر.

وهل أسطع من هالة شمس هذه الدعوة التي هو فيها، وأنـصع بياضًـا، وأشد لألأة؟

obeikandl.com

بداية شجاعة ملأت الفراغ...

وجهاد يهود والإنكليز...

وشباب حفظته من الضياع...

وفكر اتباعي لم تدنسه بدعة أو فلسفة....

ومحن تجددت فيها سنن الثبات...

ونصر من بعد كل ذلك ينادي، ما كان يوما ما بعيدًا، ولكـن اشـترط أن تمد له يد العاملين وتسعى إليه صفوف المنتظمين.

فمـن لم يـر هـذه الـشموس تركنـاه إلى ظلامـة وإن كـان عفيفـا طـاهر الجوارح، حفظا لسمعة الصف المستقيم السائر، واتباعا لوصية ذلك الشيخ الفاضل الذي حذر الإمام البنا، منذ أول أيام الدعوة، من (الصالح الذي لا يحترم النظام ولا يقدر معنى الطاعة، فإن هذا ينفع منفردًا، وينتج في العمـل وحده، ولكنه يفسد نفوس الجماعة ؛ يغريها بصلاحه، ويفرقها بخلافه).

قال : (**فإن استطعت أن تستفيد منه وهو بعيد عن الصفوف فافعل، وإلا فسد الصف واضطرب. والناس إذا رأوا واحدًا خارج الـصف لا يقولـون: خرج واحد، ولكن يقولون: صف أعوج.**

فاحترس من هذا كل الاحتراس)[1].

فهـذا إذا كـان صـالحا لا يحـترم النظـام، فكيـف بـه إن كانـت تـسيره الشهوات؟

عقل تصرعه الشهوة!

الخطب أعظم حين ذاك، حيث تتعطل القلوب عن وعيها، والعقول عن موازينها.

(1) مذكرات الدعوة والداعية/ ٨٨.

ولأخطار مثل هذه الحالة لفت الفقيه الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري أنظارنا، فقال: (**احذروا مصارع العقول، عند التهاب الشهوات**) [1].

وسماه: مصرع العقل، للدلالة على أن مراده يتجاوز مجرد مصرع البدن بالزنا وأمثاله، وأنه يعني ما هنالك من حب رياسة، وهوى انتصار للنفس، تفقد العقول معها فطرتها التي تسوقها إلى تحري المصالح ودرء المفاسد.

وصريع الشهوة لا تنفع معه مجرد تلك الربتة التي ربتناها على كتف اليائس، وإنما يحتاج إلى هزَّة، في لوم يوقظه من سِنةِ النَّوم.

فمن يلق خيرًا يحمد الناس أمره

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

أو قل: يحتاج إلى النصيحة الصريحة، والتي لصراحتها يراها البعض غليظة.

وليست هذه الصراحة عند ذي اللب والإيمان مما ينكر علينا، أو هي عنده من العدوان عليه، بل هي من تمام الحب له والشفقة عليه، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وربما يتغلب شيطان على داعية في ظرف شبهة فيفقده اتزانه، فهو بحاجة من بعد إلى نصح وتذكير بالموازين.

ومن هنا كان خير الدعاة أبذلهم للنصيحة، وأكثرهم إذاعة بها.

ويقارنه في درجته: أحملهم لغلظة النصيحة، وأعظمهم قبولا لها.

رسالتان :

ولقد كانت يوما ما قصة نصح، عبر رسالة من صاحب خير من هؤلاء الدعاة، قابلتها قصة صحوة واعتذار، من جواد كانت له كبوة.

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٥.

وفي القصص لأولي القلوب الحية مواعظ وعـبر، وربـما تنبـه مخطـئ إذا رويت له، فيكون له فيها بعض مُزدَجر.

وتبدأ القصة بهفوة من داعية، بعد دهر من الحب، يـترك معهـا الجماعـة، ويخلع البيعة وينشر قيل وقال، فيعاقبه أميره، ويعاتبه، ويذكره بتفاهة الدنيا، ويكتب إليه أن :

(بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما بعد ، أيها الأخ هدانا الله وإياك.

فإنه مما أدركنا من كـلام الـسلف الأول أن الله تعـالى إذا أراد بعبـد مـن عباده خيرًا جعل فيه ثلاث خصال:

الفقه في الدين.

والزهادة في الدنيا.

والبصر بعيوبه.

وأود أن نتصارح اليوم ونتكاشف، لعل الله يجعل لك بعد ذلـك مـن أمـرك رشدًا ويسرًا، فترجع إلى سربك، وتحفظ ذخيرة أسلفتها من ضياع يهددها.

أدعوك إلى أن ترجع بذاكرتك إن استطعت إلى أول هذا الخـلاف الـذي تدندن فيه، وأن تخبر قلبك بصدق عما سترى.

سترى أن بداية ما تلح فيه كانت كلمة همس، وضعها واضـع في أذنـك، فغلى بها صدرك.

وما إخالك تستطيع نسبة شيء من الاجتهاد في أمور الدعوة ممـا تخالفنـا فيه إلى نفسك قبل تلك الهمسة.

أفترضى أن تسلب ذاتك استقلالها بهذه البساطة، ثم يـضيق صـدرك إن ذكرناك وعاتبناك؟

كلا أيها الأخ، كلا.

فمـن أجـل واش كاشـح بنميمـة مـشى بيننـا صـدقته لم تكـذب

وقطعت حبل الوصل منا، ومن يطع بـذي وده قـول المحـرش يعتـب

بل لابد من هذا العتب، ولا نسلمك لشيطانك بسرعة.

وأخبرني:

بـأي سـنان تطعـن القـوم بعـدما نزعت سـنانا مـن قناتـك ماضـيا؟

فأنت قد نزعت رابطة العمل الجماعي من قناتـك، وهـي ليـست سـنانا ماضيا فحسب، بل كل سلاحك الذي تصول به وتجول.

أفتخدع نفسك؟

وكيف ترى في عين صاحبك القذى ويخفـى قـذى عينيـك وهـو عظـيم؟

فتحاسبنا عن صغائر لا يخلو منها مجتهد، ولو شـئنا أن نـذكرك بـنقص بعد نقص بدر منك لأسكتناك!

ولكنا لسنا بحاجة إلى أن نروي سوابق برودك.

وإنما نقول: أنى اعتراك لما خالفتنا هذا الدأب الواضح؟

هـلا تناهيـت وكنـت امـرءًا يزجـرك المرشـد والناصـح!

أو لا ترى ما أنت فيه من الافتتـان ؛ إنقاصًـا لعـدد العـاملين، وتوهيـة لركن كل داعية، وفتًّا في عضده، وإشماتًا لعدوه؟ فاتئد، وتدبر أمرك.

وإني مذكرك بالله تعالى، فارجع إليه، وخل الهوى.

وثق أن الدنيا بعد الدعوة لا تكاد تعدل جناح بعوضة عند اللبيب الذي ذاق لذة التعب والبذل لها.

أفترى في دنياك النعيم، وتنسى أنه عديم!

أم تحسبها الغناء، وهي عن قريب إلى فناء!

أم تظنها سلم الارتفاع، كأنك تجهل ما فيها من قصص الاتضاع!

أم فيها يوم يوثق له بغد!

لا والله.

وإنما نحن وإياك لكما قال الشاعر:

❊ كلانا عالم بالترهات ❊

فإنك تعلم رخص ثمن ما أنت مقدم عليه، وأنه ترهات، ولكن الانتصار للنفس يوهمك.

والأمر أهون مما تظن، ومن غشك فأقعدك في بيتك قد ظهر لك تدليسه، فتب: تجد باب الدعوة مفتوحًا، وكل أرضها مدارج، لمن أراد المعارج.

فاستعذ بالله أيها الأخ من الفتن، واطلب نصيحة الخبراء، ونق نيتك مما علق بها من شوائب، واتق الله عند غضبك، وابعد نفسك عن تأويل يستدرج.

ليسعك التغافر، وسارر في نصيحة القادة.

وأحرص على نجاة نفسك، والتفت إلى عيبك، وانظر صواب الدعاة إن نبهك أحد إلى أخطائهم، وعلق تضحيتك على أمر قادتك.

obeikandi.com

وأمسك عن الجدل، والنجوى، والغدر، وصن أذنك عن استماع الغمز، واتعظ بالتاريخ، وباستكبار الشرع لتعرب المهاجر.

وبالغ في الصدق، ولا تحتجن بزلات السلف، واعلم بأن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن الجندية هي طريق القيادة.

واحذر طبائع آخر الزمان، وخف تنكر الأرض والمؤمنين للخوالف.

وإلا.. هجرناك.

وأنت، أنت البادئ.

ولا تجزعن من سُنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

ولعلك ستجرب العمل مع من سبقك بالخروج، فلا تجد ثم إلا غليظًا، أو متهورًا، ومبتدعًا.

كلام خبير ناصح أمين أقوله لك:

لست أرى واجدًا بنا عوضا فاطلب وجرب واستقص واجتهد

ولقد كان يكفيك ما أنت فيه من سير في الطريق السهل المشرق، لكنك حملت نفسك مركبا من العبء باهظًا، وسقتها لشغب أنت في غنى عنه أبدًا.

وإنها كلمة نصح أخيرة أقولها لك:

السهل أهون مسلكا فدع الطريق الأوعرا

واحفظ لسانك تسترح فلقد كفى ما قد جرى

ولقد نصحتك واجتهد ت، وأنت بعد تخيرًا).

فلما قرأ المخطئ رسالة أميره هذه، وتدبر ما فيها استيقظت فطرته، ورجع إلى طرف لسانه طعم حليب طاهر رضعه، فأمسك بقلمه يكتب أن:

(بسم الله الرحمن الرحيم

قد بلغتني الرسالة، فما وجدت فيها إلا حقًّا.

ولا أدري ما أقول أيها القائد المطاع، فإني قد أدركت هفوتي منذ أيام، ولكن الحياء منعني أن أتوجه إليكم باعتذار.

ولقد أصبحت فجأة لأجد نفسي وحيدًا أتلفت، فإذا مظاهر الجاهلية من حولي ترهبني بعد إذ كنت عزيزًا بانتسابي إلى هذه الدعوة المباركة، شجاعًا مستصغرًا لكل جبار عنيد.

فإذ إخوتي حولي، وإذ أنا شامخ، بصافية الأفكار، والنفس في شمم أتاني الوشي بعد الوشي، فصدقتهم فكانت تلك العثرة مني.

تكنفني الوشاة فأزعجوني ... فيا لله للواشي المطاع

فأصبحت الغداة ألوم نفسي ... على شيء وليس بمستطاع

كمغبون يعض على يديه ... تبين غبنه بعد البياع

وكيف أصف لك شعوري يومها وقد صرت كما صار كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف فقال:

(إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق)[1].

فما من خارج عن الجماعة من قبل، كنت أعلم ضعفه يوم كانت قدمي ثابتة، إلا وأصبح يحتفل بي إذا رآني، ويهش بوجهي، ويبتسم ابتسامة تلذع قلبي.

وإنه لدرس لي، كان، وعفا الله عما سلف، وأحمد الله تعالى على ما هداني

(1) صحيح البخاري ٦/ ٥.

إليه أولا، حين كنت ناشئا في هذه الدعوة، وأخيرًا حين زلت قدمي بالأمس فبصرني عيبي ويسر لي التوبة اليوم، ثم أحمده لما كان بين ذلك من حفظ وتربية وتأديب.

أيها القائد المطاع :

أملي أن تقبلوا عذري، مؤكدًا أني الآن قد :

صحا قلبي، وعاد إليَّ عقلي وأقصر باطلي، ونسيت جهلي

راجيا نسيان ما حدث، إذ لعلها كبوة جواد،

والسلام عليكم ورحمة الله).

تلك كقصة عتاب واعتذار.

وهل لهذا القائد غير أن يقبل عذر المعتذر بعد إذ بلغه قول النبي ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم)![1]

صلح ذوي الراحات

لكن الذي يرفض النصيحة يبقى صريع شهوته، فيفضحه عيبه، فتشير إليه الأصابع، فيفتش عن مثيل، فتتكون جمهرة ناشزة، تبدو من خارج كأنها متآلفة، وعوامل التناقض تتصارع داخلها.

وهذا هو صلح الافتضاح الذي اكتشفه الفضيل بن عياض لما وصف أنفارًا من الأضداد تحالفوا فقال:

(افتضحوا فاصطلحوا)

فلكل منهم عيوب، فهم مصطلحون على ترك التناصح بينهم، متفقون على تدليس عيوبهم وتغطيتها بلبوس الصفة الجماعية.

---

(1) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/ ٣٨٢.

وهذه الظاهرة تكشف لمن يعرفها خلفيات كثير من الفتن التي ألهت الدعوة، وتبين أصول انطلاقها وتطورها.

وغالبا ما يكون فقدان القدرة على العمل التجميعي والتربوي هو العيب المشترك المؤدي إلى ظاهرة صلح الافتضاح هذه، فإن الضعيف يهوى أن ترتفع منزلته في الدعوة بتناسب طردي مع قدم انتسابه وارتفاع منزلته الوظيفية أو الدراسية أو الاجتماعية، وللدعوة أنظمة وأعراف وشروط تمنع تولية من لا يبرع في أعمالها وتنفيذ خططها، أو من يتوارى ويؤثر الراحة أيام التضحية، فتصطدم رغبة الضعيف بالأسباب التي تحول دون تحقيقها، فيكون الافتتان عند ضعف التقوى.

وخطاب الشاعر القديم لبعض المفتتنين يبعثه استشعاره لهذه الحقيقة لما يقول لهم:

فانتهوا إن للشدائد أهلا وذروا ما تزين الأهواء

فهو يطلب منهم الانتهاء عن الغي ويدعوهم إلى الإفصاح عما ستروه من دافع حب الراحة وتجنب المشقة.

وهو نفسه الدافع الذي حكاه القرآن عن المخلفين في سورة التوبة ؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨١] .

(إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف

الـدعوات، ولكـن هـذه الـصفوف تظـل في طريقهـا المملـوء بالعقبـات، والأشواك، لأنهـا تـدرك بفطرتهـا أن كفـاح العقبـات والأشـواك فطـرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليـق بالرجال)[1].

(هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد – في ساعة العسرة- وتخلفوا عن الركب في أول مرة ، هؤلاء لا يصلحون لكفـاح، ولا يرجـون لجهـاد، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضي، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الـديني بعدما تخلوا عنه راضين:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾

[التوبة:٨٣].

(إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق ، والـصف الـذي يتخللـه الـضعاف المـسترخون لا يصمد ؛ لأنهم يخذلونه في ساعة الـشدة فيـشيعون فيـه الخـذلان والـضعف والاضطراب ، فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدًا عـن الـصف وقاية له من التخلخل والهزيمة ، والتسامح مع الذين يتخلفون عن الـصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء ، جناية على الـصف كلـه، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير.

(فقل: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة:٨٣] .

(1) في ظلال القرآن ١٠/ ٢٦٤.

لماذا؟

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:٨٣]

ففقدتم حقكم في شرف الخروج، وشرف الانتظام في الكتيبة، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل، فلا سماحة في هذا ولا مجاملة.

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣].

المتجانسين معكم في التخلف والقعود.

هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدًا)[1].

فتاوى الفقهاء في تنقية الصفوف

وهو الطريق الذي فهمه أعيان فقهاء الإسلام منذ صدر الإسلام وعلى تعاقب القرون ؛ فأرشدوا قادة المسلمين إلى تطهير الصف من المخذِّل والمثبط والمرجف، والتشدد في انتقاء الجنود.

فمثال كلام السلف الأول في ذلك: استعراض الإمام الشافعي في كتاب "الأم" لحوادث تخلف المنافقين المتتالية عن المشاركة في الغزوات النبوية الكريمة، وتنبيهه إلى أن من يشتهر في أجيال المسلمين بعد ذلك بمثل ما وصف به أولئك المنافقون فإن أمره يقاس عليهم ويعاقب بمثل ما عوقبوا به .

يقول الشافعي:

(غزا رسول الله ﷺ فغزا معه من يعرف نفاقه، فانخذل يوم أحد عنه بثلثمائة، ثم شهدوا معه يوم الخندق ، فتكلموا بما حكى الله عز وجل من

(1) في ظلال القرآن ١٠/ ٢٦٥.

قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢] ، ثم غزا النبي ﷺ بني المصطلق، فشهدها معه عدد، فتكلموا بما حكى الله من قولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].

وغير ذلك مما حكى الله عز وجل من نفاقهم، ثم غزا غزوة تبوك ، فشهدها معه قوم منهم نفروا ليلة العقبة ليقتلوه، فوقاه الله عز وجل شرهم، وتخلف آخرون منهم فيمن بحضرته، ثم أنزل الله عز وجل في غزوة تبوك ـ أو منصرفه عنها ولم يكن في تبوك قتال- من أخبارهم ، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة].

قال الشافعي: فأظهر الله عز وجل لرسوله ﷺ أسرارهم خبر السمَّاعين لهم ، وابتغاءهم أن يفتنوا من معه بالكذب والإرجاف والتخذيل لهم، فأخبره أنه كره انبعاثهم فثبطهم، إذ كانوا على هذه النية، وكان فيهم ما دل على أن الله عز وجل أمر أن يمنع من عرف بما عرفوا به من أن يغزو مع المسلمين ؛ لأنه ضرر عليهم.

قال الشافعي:

فمن شُهر بمثل ما وصف الله تعالى المنافقين لم يحل للأمام أن يدعه يغزو معه؛ لطلبه فتنتهم وتخذيله إياهم ، وأن فيهم من يستمع له بالغفلة والقرابة والصداقة، وأن هذا قد يكون أضر عليهم من كثير من عدوهم)[1].

واستمر الفقه على هذا حتى استلم رايته ابن قدامة المقدسي فقال:

(1) الأم للشافعي ٤/ ٨٩.

(ولا يستصحب الأمير معه مخذلا، وهو الذي يثبط الناس عن الغزو ويزهدهم في الخروج إليه والقتال والمشقة، مثل أن يقول: الحر أو البرد شديد، والمشقة شديدة ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش . وأشباه هذا.

ولا مرجفا، وهو الذي يقول: قد هلكت سرية المسلمين وما لهم مدد، ولا طاقة لهم بالكفار، والكفار لهم قوة ومدد وصبر ، ولا يثبت لهم أحد. ونحو هذا.

ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار وإطلاعهم على عورات المسلمين ومكاتبتهم بأخبارهم ودلالتهم على عوراتهم أو إيواء جواسيسهم.

ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة] ولأن هؤلاء مضرة على المسلمين فيلزمه منعهم)[1].

وهذا من الكلام الحق الذي لا يستغربه المعالج لسياسة الجماعات.

غرور الفقيه يمنع تأميره

وأما من يستغرب مثل هذا الكلام، ويستصعب قياس أحوال مفتتنة اليوم على أحوال المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فإننا على استعداد لكي نسير معه مرحلة فقهية أخرى لا خلاف فيها.

فلو تجاوزنا وصية الذي حذر الإمام البنا من الرجل الصالح الذي لا يحترم النظام، مما ذكرناه آنفا، ونصحه له بإبعاده عن الصف، فإننا نجد في

(1) المغني لابن قدامة ٨/ ٣٥١.

فقه عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما يسوغ إبعـاد الـصادق صـاحب الخـير عـن المسؤولية إذا كان فيه نوع من حب الظهور والخيلاء، سدًّا للذريعة، وصيانة له من احتمالات الافتتان والجناية على نفسه وعلى الدعوة.

فقـد روي أن الراشـد الخـامس لمـا ولي الخلافـة أرسـل إلى أبي عبيـد المذحجي، وكان فقيها ثقة في الحديث، من شيوخ الأوزاعي ومالك، وممـن يستعين بهم الخليفة سليمان بن عبد الملك، فقال له عمر:

(هذه الطريق إلى فلسطين، وأنت من أهلها، فالحق بها.

فقيل له: يا أمير المؤمنين، لو رأيت أبا عبيد، وتشميره للخير!!

فقال: ذاك أحق ألَّا نفتنه، كانت فيه أبهة للعامة)[1].

فهي كلمة قالها عمر، وسوَّغها فعل عمر.

ولقادة الدعوة هذا اليوم أن يقولوا لكل داعيـة يتطلـع للـسمعة والجـاه والمكانة الاجتماعية المرموقة مثل الذي قاله عمر لأبي عبيد، ويفهموه أن:

قد أخطأت بداية الطريـق إلى مـرادك، فمـررت بـديار دعـوة التواضـع والبذل والالتزام الخططي، وهذه الطريق إلى ديار أشكالك، فالحق بهم.

* * *

(1) تهذيب التهذيب ١٢/ ١٥٨.

obeikandl.com

22 أخيار ولا فخر!

ومن العوائق: الهزيمة النفسية أمام كثافة نقد المتهجمين، حتى أن الداعية ليظن بنفسه السوء.

ذلك أننا مازلنا نسمع بين الفينة والفينة نقدا من الدعاة لأنفسهم، يتخذ أحيانًا عند بعض متحمسيهم شكل تقريع، يتهمون خلاله أنفسهم بأنهم قصروا عن الوصول إلى منازل السلف، وأن بينهم وبين الصفات التي يحكيها التاريخ لنماذج السلف الصالح الأول من الصحابة ﷺ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان رحمهم الله، بونا شاسعًا، وأن الفاحص يتلفت فلا يرى أحدًا سما وعلا في أخلاقه وعبادته وجهاده إلى درجة يماثل بها أولئك النبلاء النجباء.

وقد يتخذ هذا التقريع بعدًا آخر يتفرع منه، يضع الدعاة في موقف المتهم لمناهج التربية الإسلامية الحركية، ويحملها مسئولية هذا القصور.

ولسنا نشك في أن هذه الظاهرة ظاهرة صحية في مجتمعات الدعاة، وأن فحص النتائج ومعاودة الحساب فضيلة راجحة على السير الجزاف الذي لا يعطف المرء فيه إلى مناقشة العمل.

ولكن جمال هذه الظاهرة لا يكتمل إلا بمناقشة وتقويم من قبل المجربين لما يطرح من تساؤلات وشكوك في هذا الباب، وهذا ما يحدونا إلى أن نطلب من الدعاة مصاحبتنا خلال هذه الفقرات في عملية وزن للقضية،

نحاول أن نكون حكما فيها، يكشف حقيقة الرصيد الحاصل، وطبائع النقص الواجب استدراكه.

والذي ندعو له ابتداء أن يرى الداعية الناقد لنفسه فروقا واضحة بين جيلنا وأجيال السلف، وظروفا قد تغيرت، ولابد من أخذ ذلك بعين الاعتبار حين البحث.

طمع محرك، ورحمة مغرية

فأول ما يبدو هنا من ذلك أن المربي بالأمس غير المربي هذا اليوم، فلقد كان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون، ومن وازاهم من قدماء المهاجرين ونقباء الأنصار، هم المربون لذلك الجيل السالف الذي فتح الله تعالى على يديه الفتوح العظيمة ، وتلك بركة أنيل لها في خصوصية واضحة، من لدن متفضل لطيف منعم سبحانه ، لا ينبغي لأحد ممن بعد جيلهم أن يسمح لنفسه في أن يأمل عشرها فضلا عن مثلها ، بل لقد قال النبي ﷺ لبعض الجيل الأوسط من الصحابة ﷺ إنهم لن يبلغوا نصيف مد أحد من رعيلهم الأول، كما روى مسلم في صحيحه، فكيف بمسلمة الفتح ومن تلاهم؟

فكل متصد للتربية بعدهم ناقص –ولابد– عنهم، وإنما فرضتنا الحاجة التربوية فوضعتنا في مقام الأستاذية بعضنا لبعض طمعا في أن ننال بالتواصي الجماعي بالحق وبالصبر ما يمكن أن ينال من جميل الخصال الإيمانية، ومحاسن الصفات الإسلامية.

فنحن بهذا الطمع نتحرك، من دون تطلع لمنافسة السلف الصالح، فإنهم قد استبدوا بالحظ الأوفر مـن الفـضل، وبالنـصيب الأوفى مـن المحاسـن، ومتجرد عن الأدب ذاك الخلف الذي يطيل عنقـه تكلفـا ليـصل برأسـه إلى مستوى رفعتهم، ولولا حديث :"**اعملوا ، فكل ميسر لما خلـق لـه**"لفـترت الهمم، وركّت العزائم، ولكنها رحمـة الله واسـعة، تطمـع الطـامع وتغريـه، فيتشبه بالكرام عسى ولعل.

الهدم الصعب

ولو عكسنا رؤيتنا لجابهتنا حقيقة مقابلة لهذه، تفصح عن أن المتربي هذا اليوم هو غير سلفه المتربي، وليس المربي فقط، فاليوم يشهد المجتمع تصارعا بـين منـاهج تربويـة مختلفـة، يقـف المـنهج التربـوي الإسـلامي في خـضم تصارعها، ونجد الفرد الشاب الذي نحـاول تربيتـه مختلط الفكـر، مـوزع القلب، مضطرب النفس، من جراء ما خضع لهذا الحشد الـشديد التنـاقض من مواد التربية التي تصبها عليـه منـاهج المـدارس والجامعـات، وبـرامج الإذاعة والتلفزيون، ولغو الصحف والمجـلات، ولكلهـا تـأثيرات تـصادم كلام المربي المسلم، وتؤثر سلبًا على تلميذه.

أما جيل السلف فكان جيلا بسيطا فطريًّا، وكان العرب بخاصة في عزلة عن الأمم، وما ثم إلا شركهم بالله تعالى شركا بـدائيا غـير معقـد، يعبـدون خلاله الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وهم أهل صدق في المقال، وعفاف في الجوارح، قد غمرتهم خلوتهم الصحراوية بسكينة افتقدتها الأمم، ولم تكـن لهم فلسفية جاهلية تناقض الإسلام الجديد، ولا يعرفون الجدل في ذلك، بل

فيهم بقية من الحنفية الإبراهيمية، حتى لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله يجهر بالتوحيد عند الكعبة، ويدعو العرب إلى ملة إبراهيم، قبل أربع سنوات فقط من نزول القرآن، فكان صنيعه وصنيع أمثاله من آخر الحنفيين المهديين، إرهاصًا بين يدي دعوة النبي ﷺ بمثابة التمهيد وإثارة تطلع العرب إلى الدين القديم الجديد.

ومن هاهنا، فإن جهود النبي ﷺ وجهود أصحابه ﷺ، في التربية من بعده قد أثمرت كلها ولم يتبدد شيء من جهدهم سدى؛ لجودة معدن المتلقي المتربي، وخلو فكره عما يناقض ما يقال.

بينما نبذل اليوم جهدًا كبيرًا لإصلاح ما أفسدته التربيات المختلفة في نفوس تلاميذنا، ونسلك معهم طريقا طويلا لإيصالهم إلى منزلة الحياد، إن صح هذا التعبير، لنبدأ من بعد ذلك بإعطائهم مفردات الإسلام، وهي عملية شاقة، عملية استلال بقايا الجاهلية من نفوس المتربين التلامذة، فبعضهم يحن حنينا إلى شيء من طباعه الماضية وقد كنت تظن أنه قد استكمل الإيمان أو قارب، وكم من حيصة يحيصها المتربي قبل النهاية تعلِّم المربي ضرورة إطالة النفس في هدم تأثيرات ورذائل التربيات المعاكسة في نفس التلميذ الثاني اللاحق له قبل بناء قواعد الإسلام فيه.

ولا شك أن عملية الهدم والبناء عملية مزدوجة تتم في آن واحد، ولا نريد أن يعترض معترض على ألفاظنا هذه، ولكنها ألفاظ لابد منها لتوضيح المعنى.

ومما يمكن أن نحتج به ونتخذه دليلا في هذا الـصدد، أن الفـرس وأمـم الهند، كانت لهم فلسفات جاهلية وكتب مدونة، سببت اختلاط إسلام كثير منهم بالبدع حين أسلموا، وعاند كثير منهم، ولم تظهر فيهم نماذج عاليـة في حياز صفات الإسـلام بمثـل كثافـة ظهورهـا في العـرب أول مـا افتتحـت الفتوح، مع أن المربي واحد، وإنما شاع فيهم الخير من بعد دهر طويل نـسوا فيه جاهليتهم تلك، واندثرت معالم فلسفاتهم.

وتكررت هذه الظاهرة مـرة أخـرى في عـصر الإسـلام الأوسـط حـين دخلـت شـعوب جديـدة في الإسـلام كانـت متـأثرة بفلـسفات الإغريـق والرومان، فلم يكثر فيهم النبلاء إلا من بعد دهر.

كذلك نجد صدى هذه الظاهرة جليًّا لما شاعت في زمن المأمون ترجمات كتب أرسطو وأفلاطون، فضعفت الهمم، ونـدرت نـماذج الخـير، حتـى أن المتفحص للتاريخ ليجد صدودًا غريبا عـن كتـب سـقراط لا يفهمـه لأول وهلة، ولكن عجبه يزول حين يعلم أن سقراط كان أقرب إلى التوحيد مـن أولئك، فركنوه جانبًا، ولولا وقفة إمام السنة أحمد بن حنبل لضعفت دولـة الإسلام، لكن الله رفأ به الفتق وسد الخرق.

ومرادنا من كل هذا التنبيه على أن بعض جهودنا التربوية اليوم تهدر بلا سبب منا، ولا سبب من المتربي، ولكنهـا جنايـة الجاهليـات المعاكـسة عـلى الجيل الحاضر.

الخيرية المتناقصة

ومع ذلك فإن احتمال ظهور نماذج تقابل نماذج السلف ممكن، لكنهم لن يكونوا إلا قلائل، ويجب أن نوقن أن الله تعالى شاء ذلك وأراده ، وكتب علينا أن نكون أقل استمتاعًا بجمال الإسلام عما كان عليه السلف، فإن الحديث الصحيح ينطق بأن خير القرون قرنه ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

ولو جمعنا هذا الحديث إلى حديث "شرار الناس من تقوم عليهم الساعة وهم أحياء " المروي في دواوين الصحيح أيضًا، لتبين لنا أن خيرية الأجيال في تناقص وتقلص مستمر، وأن القدر قد جعل المنافسة من الآخر للأول مستحيلة، لكنها المقاربة والتسديد، من غير أن يدب إلى نفوسنا يأس في حيازة بعضنا لما حازته أجيال السلف من المكارم، فإن عصابة من أمة محمد ﷺ لا تزال ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، كما نطق الحديث الصحيح، ولا ندري أينا الموفق لأن يكون فيها، وعلينا أن نصارع القدر بالقدر، كما أرشدنا إلى ذلك عبد القادر الكيلاني رحمه الله حين ذكر أنه قد فتحت له روزنة، أي فتحة مثل الشباك، فرأى سفينته تجري في بحر القدر تلاطمها أمواجه، فهو يصارع القدر بالقدر، ومما قدره الله لنا أننا في الجيل المتأخر المفضول ، فنصارعه بقدر الخير المتمثل بالعمل على الانتساب لهذه العصابة، ونعمل لما يتيسر لنا، مدافعة وتحويلا لقدر الشر المتمثل بتناقص الخيرية.

obeikandl.com

جمال الفضائل سبب تخليدها

ولا يغيبن عن الأذهـان أن الكتـب التـي عرفتنـا بـأحوال الـسلف قـد أرخت الفضائل بأكثر ممـا أرخـت نقـص الناقـصين، ومـا مـن شـك في أن أساتذة التربية يميلون إلى تأريخ هذا النقص، ليبتعد عنـه الموفقـون، مـيلهم إلى تأريخ الفضائل، ليقتدي بها المشمرون، ولكن في النفس الإنـسانية مـيلا إلى حب الجمال فطريًّا مقتبس من حبه سبحانه وتعالى للجمال، إذ هـو جميـل يحب الجمال، كما في الحـديث الـصحيح عنـد مـسلم، كمثـل مـا اقتـبس الله للإنسان والحيوان شعبة من فيض رحمته الواسـعة هـو عـز وجـل، فكانـت كتب التاريخ، لذلك، أكثر إظهـارًا للفـضائل، لجمالهـا، مـن إظهـار العَـوَرَ والنقص والحيصات، فنحن نرى الصورة الفاضلة لمجموع أجيال السلف، وغابت عنا هفواتهم بتأويل من تأول تغيبها؛ جمعًـا للقلـوب، وسـدًّا لبـاب التناحر والفتن والطعن فيهم، وهكذا أصبحنا نظـن أن الـسلف أصـحاب كمال مضاعف عما هو عليه أمرهم حقيقة.

وليس هذا من الطعن بالسلف بحال من الأحوال، فإنَّا قد قدمنا من الكلام ما ينفي هذا الوهم، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يزن المسلمين بميزان سورة الأحقاف، في قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف:١٦]

ونعلم أن الله قد ذكر ذلك لنا إرشادًا وتنبيها وتأديبا وتعليمًا، وأن من رجحت حسناته هو الراجح، وقد عظم خيرهم، وفي التأول لهفواتهم مندوحة.

نعم، إنه ليس من الطعن، ولكنها دعوة إلى الواقعية في فهم تاريخنا لابد منها لتوضيح الجواب للذين يلومون أنفسهم، ودليلنا: ما ذكروه من أشياء على سبيل المدح عن آحاد منهم دون سائرهم، من شدة التعبد، وصلاح الباطن، والشجاعة الفائقة، ونحو ذلك، فلو لم يكن المجموع قاصرًا بعض القصور على المستوى المثالي الذي وضعناه فيه، لما تميز هؤلاء بالفعل المذكور عنهم.

وهذه الطبيعة في المؤرخين مستمرة تقتضيها صنعة التربية، حتى أننا لو قرأنا بعض الصحف الإسلامية ترثي بعض خيار أموات المسلمين اليوم، من الدعاة والعلماء والمجاهدين والمنفقين، لرأينا أوصافا تصورهم كأنهم السلف، بينما نحن نعرف بحكم معايشتنا لهؤلاء المرثيين هفوات وكبوات أغفل ذكرها من كتب رثاءهم، لا من باب التدليس والتمويه والتزلف، بل من باب تربوي بحت غايته إثارة الهمة في الأحياء للاقتداء بمحاسن فعالهم.

فقس ما كان يجري بين السلف من ذلك على ما يجري بيننا من هذا.

التراجع يضعف الهمم

يضاف إلى هذا أننا الآن في فترة اجتماعية وسياسية ميزتها التراجع والتدهور إذا قسناها وفق موازين التمدن، وقد شاهد ابن خلدون في مقدمته، وغيره من علماء الاجتماع، أن أعمار الدول كأعمار بني آدم، وأنها تبدأ بقوة وفتوة، ثم يستوي أمرها على نسق هادئ، ثم يميل إلى التأخر

التدريجي حتى تنقضي تلك الدولة، فتتأسس على أنقاضها دولة جديدة تأخذ الأمر بقوة وتستأنف الانتصار.

والإسلام قد مثلته خلال تاريخه دول متعاقبة انطبق عليها هذا الميزان، وكل منها قد أجاد وأفاد، وحمى الإسلام، وفتح الفتوح، فتأججت حماسة المسلمين أبناء تلك الدول في فورات متعاقبة حفظت للإسلام حيويته، كما أنه ليس من هذه الدول دولة إلا وتورطت في هفوة أو تقصير يقابل إحسانها.

وجيل المسلمين الحاضر يعيش فترة تراجع شديد بانقضاء عمر الدولة العثمانية، تولد عنه فراغ، بانتظار قيام دولة جديدة تمثل الإسلام، لابد أنها آتية إن شاء الله ، وفي مثل هذا الفراغ تضمحل الحماسة، فتبقى حماسة الأفراد معتمدة على ذاتيتهم المحضة ووعظ الواعظين، تظاهرها أو تعينها الحماسة العامة السائدة في كل دولة فتية، والناتجة عن انتصاراتها المبهجة لنفوس أبنائها.

وهذا ما يعطي من باب آخر شبه عذر نعتذر به لجيلنا الحاضر في تخلفه عن بلوغ الدرجات العالية وقصوره عن منازل السلف، ولقد مرت فترات في التاريخ الإسلامي شبيهة بهذه، هي فترات نهايات الدول الإسلامية، فكان الجهل يشيع، وتبرد الهمم، ثم تبدأ صعودًا آخر بمجيء دولة أخرى يحكمها مسلم موفق عالي الهمة.

وفي الأحاديث التي صححها الشيخ الألباني حفظه الله ما ينبئ عن قيام خلافة راشدة في آخر الزمان، كأننا في انتظارها الآن، تجدد حيوية المسلمين وترفع مستوى جيلهم.

اعتداد بلا غرور

إن هذه الحقائق توجب سلوكين:

السلوك الأول يخصنا نحن أبناء الحركة الإسلامية، خلاصته: لا نسرف في اتهام أنفسنا بأنواع الضعف، وأن نوقن أننا على خير وفير كثير إن شاء الله، وبفضل منه ومنة.

نعم، ما هو بالخير الكامل، ولسنا كمثل السلف، لكننا أهل عزة إيمانية ترجع بنا بعد كل هفوة إلى إصلاح الخطأ، وعلينا أن نعتقد أن سبيل إنماء فضلنا وتكميله ليس هو سبيل التقريع الشديد للنفس، القاتل لها، بل هو سبيل التوبة الشرعية مرة بعد مرة، في أول مسارنا، وفي أواسطه، وفي أواخره، فبالتوبة، وبالتناصح، وبالتواصي بالحق والصبر نسد ثغرات جدارنا ونكمل بناءنا.

وليس ذلك بغرور، أعاذنا الله منه، ولا هو إدلال بهذا القليل من العمل الذي نؤديه للإسلام ؛ لكنه المنهج التربوي الذي ينبغي لنا ويجب علينا، حذرًا من أن نقع في ما وقع فيه بعض علماء العصر الأوسط من السلف، حين أكثروا التخويف، وتوسعوا في ذكر الوساوس ومحبطات الأعمال، حتى لف الناس اليأس شديد، ولم يفتحوا لهم بابا من الرجاء يقابله.

مجازات المواعظ لا تفهم بجمود

ويصدر بعض الدعاة في تضعيف أنفسهم ومَن حولهم عـن فهـم جامـد حرفي لكلام الحماسة الذي نعظهم به، ويغفلون عن طبيعـة المـربين في إيـراد المجازات والقصص التي يريدون منها تنويع التذكير والتفـنن فيـه، ليكـون أدعى لدخول القلوب، من دون أن تكون نيتهم طلب التطبيق الحـرفي مـن قبل التلميذ لما يريدون.

فلقد وصفوا رسول الله ﷺ بأنه لم يضع لبنة على لبنة، وما أرادوا حرفيـة ذلك، فإنا نعلم أنه قد كانت لكل زوجة من زوجاته حجرة، ولم يكن يعيش في خيمة أو في العراء، لكنهم أرادوا عدم تطاوله في البنيان، وتواضعه فيـه، وعدم توسيعه مساحة بنائه، ثم يأتي متحمس من الدعاة اليوم يصفق بيديـه ويسترجع، حين يرى أخا له يبني له دارًا تستره في مثل هذه المعيشة المعقـدة الحاضرة.

وروينا خبر فلان من السلف، لم يكن يميز الـدرهم مـن الـدينار، وإنـما أرادوا عزوف قلبه عن الدنيا، وشدة انغماسه في العلم والعبادة، ثـم يجلـس دعاة اليوم، يعيبون أخًا لهم يمارس التجارة، لم تصرفه صفقاته عن واجباتـه في الدعوة، ولو تأملوا لوجدوا أن عدم معرفة الدينار من الـدرهم بـالأمس يقابلها جهل أكثر الدعاة اليوم جهلا مطبقا بما هنالك من مضاربات سـوق الأسهم وتركهم ذلك في سبيل الله، مرابطة مع خطط الدعوة، إلا مـن نفـر منهم - لله أيضًا- ليضارب، يبتغي تحويل المال إلى الأيدي المتوضئة.

وكذلك ما تداولناه من قبل من خبر ذلك التابعي الذي بنى له ولفرسه حصنا بالكوفة، كأنه يبدي استعداده للجهاد، فيأتي أحد اليوم يقلده في ذلك.

والناظر بعين العقل، المتأني، يعرف أن مقصد ذاك التابعي منصرف إلى تربية الناس بمنظر عملي على معاني المرابطة للجهاد، وإلا فإنه لو كان يريد حرفية فعلته لبنى له حصنا في جبهات القتال، وقد تجاوزت الفتوح في عهده بخارى وبلخ.

ومثله: ذاك الذي لما حدثت الفتنة وضع الطين على بابه وجعل بيته مقفلا، إلا فتحة صغيرة يتنفس منها ويتناول الطعام، فهو إنما أراد بفعلته هذه أن يذكر الناس بمنظر عملي معنى اعتزال الفتنة كلما مروا به وسألوا عن سر هذا الباب المطين، وإلا فالذي يريد أن يعتزلها يسعه أن يعزم عزمة ويدع أبوابه مفتحة.

فعلى إخواننا أن يثقوا بأنفسهم، ويعرفوا أن الله تعالى قد تفضل عليهم وأسبغ عليهم نعمة من الإيمان والعلم والعمل يجب إظهار شكرهم له عليها، وما ثم إلا دعاء له سبحانه بأن يتم لهم نورهم.

وصحيح أن أحدنا يجب أن تكون نفسه حساسة لأدنى تقصير، وأن نقول مرارًا :اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.وأن نقول:نبوء بنعمتك علينا ونبوء بذنوبنا، فاغفر لنا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.لكن هذه الحساسية لا تقتضي مقت النفس واتهامها

الاتهام المسرف الذي يقتل فيها تطلعها إلى الاقتداء بالسلف المهـديين، فـإن ذلك من العوائق.

ليست الصغائر مثل الكبائر

إن الكثير من حساب نفوسنا، ووزننا للآخرين مـن المبتـدئين العـاملين معنا، نجنح فيهما أحيانًا إلى التشدد الزائد عن حد الشرع.

ففي الشرع حرام محض بالغ الحرمة، وفيـه مكروهـات وصـغائر ولـم، ويمكن تمييز كل فعل ودرجاته من الإثم في ذلك من الـنص عليـه، أو مـن النظر إلى القرائن والظروف، ولكن البعض يستعظم كل الاسـتعظام أشـياء من الصغائر يقترفها إخوانه لم تأت الآيات وكلمات النبي ﷺ مستعظمة لهـا بمثل ذلك بمقـدار مـا أتـت تحـث عـلى التوبـة منهـا، وإتباعهـا بحـسنات تمحوها، من صدقة وصلاة، والنظر إلى رحمة رب رحيم يقبل أوبـة المتـورط فيها.

وانظر الزنـا المحـض والكـذب مـثلا، تجـد الـشرع متـشددًا فـيهما كـل التشديد، عادًّا لهما في جملة الكبائر، واعدًا مـن يـبرأ في حياتـه مـنهما بالجنـة، وذلك قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري: **"من تكفل لي بما بين فخذيه ولحييه تكفلت له بالجنة"**أي: تكفل بسلامة فرجه من الزنا الحقيقي الذي يكون في التقاء الفرجين، وبسلامة لسانه من الكذب.

ومفاد ذلك أن النظر الحـرام ومـا وازاه، واللغـو والتنـابز وأمثالهـا مـن الصغائر، إذا خالطت تلك العفة، فإن الجنة تبقى غير بعيدة عن العفيف، لا يلزمه لتمام قربها غير حسنات يسيرات يكون فيهن تكفير صغائره.

ويتأكد ذلك إذا علمنا أن الله تعالى قد كتب عدم الكمال على كـل البـشر في هذا الباب المتعلق بالزنا والكذب، قدرًا محتومًا عليهم، يدرك كل إنـسان من مقدماتها والصغائر المشتقة منها شيئا مهما عف فرجـه أو لـسانه ، فـإن الحديث المروي في صحيح البخاري يذكر صراحة أن: **"كل ابن آدم مـدرك حظه من الزنا لا محالة؛ فزنا العينين النظر، وزنا اللسان المنطـق"**فـلا يوجـد البريء براءة تامة، بل هو مقارف لبعض فروع الزنا والكذب التـي يـصدق عليها اسمها مجازًا، لا محالة ولا مفر له من ذلك، وإن ترك تلكما الكبيرتـين الحقيقتين، وذلك يوجب علينا ألا نذهب في التشدد في توثيق مقـترف هـذه الصغائر إلى حد التزمت وتضعيفه تضعيفا مطلقـا، بـل نلتـزم حـد الـشرع الذي ميزها عن الكبائر.

هكذا وقس على الزنا والكذب بقية الكبائر وفروعها من الصغائر.

ورب ظان يظن أن في مثل هذا الكلام من التساهل والتجريء للداعيـة على اقتحام اللمم والإكثار منه ما يولد مفاسد كثـيرة ويهـون أمـر المعـاصي عليهم فيستجيزونها، وذلك وهم، فإن الكـلام التربـوي لا يفهـم بتجـزؤ، ونحن لا ندعو إلى ترك هذا التزمت ساكتين عن حقائق الشرع الأخرى، بل نلح إلحاحًا، ونلهج لهجًا، بتزيين الفضائل الإيمانية والدعوة إلى التمسك بها والتنافس في الإكثار منها، وغض البصر وترك اللغو من هذه الفضائل التي تميز الدعاة إلى درجات وطبقات، ما بين متعفف عنها شامخ بعفته، في رنـو إلى حوريات الجنة، كأنه يراهن في دنياه رأي عين، فهو في الطبقات العاليـة، وآخر فاتر الهمـة في مقاومـة الإغـراء، فهـو في انـشغال قلـب ينـزل بـه إلى

الدرجات الدنيا. كما نعظ المتساهل مع نفسه وعظًا بليغا، ونذكره بأن النظر وما ماثله من الزنا المجازي قد يجره بالتتابع، وباستدراج من الشيطان، في لحظة شهوة وغفلة، إلى الزنا الحقيقي الذي يحرمه كفالة النبي ﷺ له بالجنة، كما نذكره بأن الذي يتصدى لمرتبة دعوة الناس وتعليمهم غير العامي من المسلمين، فإن الداعية تعظم منه الصغيرة، ويكون بها في صد عن سبيل الله، إذا اقتدى بهفواته المقلدون، وفي صدود بغفلته عن ذكر وتسبيح كان منبغيًا له وتساعده الخطة الجماعية عليه وقت ما ألهته الصغائر، وهذا الصدد والصدود شعبة تقرب من الكبائر بالنسبة إليه، ويظل إثمها على الفرد المتسيب أو العامي دون إثمها عليه بكثير.

وفي قصة جريج العابد، الواردة في صحيح البخاري، مغزى جد كبير. ذلك أنه عصى أمه فلم يجبها، انشغالا بصلاة نافلة، فدعت عليه بالشر، وكان منتهى دعائها أن يرى وجه المومسات، فكانت قصته مع البغي المتهمة له وهو من الزنا بريء، فالداعية المتوغل في طريق الدعوة، المتجاوز لمرحلة الابتداء، مثله مثل جريج في عبادته، يكون من أقصى العقوبة له أن يرى امرأة زانية فضلا عن أن يزني بها، فتدبر وتأمل!!

وكذلك يرد هنا في هذا السياق أيضًا التفريق بين المقل والمكثر من هذه الصغائر، والمصر والمستغفر، من باب ما ذكره الفقهاء من أنه (**لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار**).

وأيضًا فإن النظر إلى المرأة المصلية الملتزمة المحجبة، وهو الذي كان أكثر ما يعنيه الفقهاء، غير النظر الذي تتيحه ظروف الحياة اليوم إلى المتبرجات

بسبب سيرهن في الشوارع العامة أو أثناء مخالطتهن في الجامعة وأماكن العمل، مما تكون فيه النظرة الأولى جالبة لثانية دون فضول.

وهذا الذكر لهذه الحقيقة الشرعية في أمر الزنا، والدعوة إلى التشدد إزاء مرتكب الكبيرة فيه، والتساهل إزاء مرتكب فروعه من الصغائر، إنما شأنها شأن حقائق شرعية كان ذكرها مفسدة على بعض المسلمين، لما فهموها فهما ابتداعيا مصحوبا بجهل، ولكن وقوع المفسدة لن يغير من نسبة رجحان ذكر هذه الحقائق ونشر علمها بين المسلمين.

فمن ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه في دخول قائل لا إله إلا الله الجنة، وكيف أحب أن يبشر بذلك الناس، ولكن النبي ﷺ منعه خوفا أن يتكلوا ويدعوا الأعمال، فإن أبا ذر أخبر بهذا الحديث عند موته خشية منه أن يقع في إثم كتم العلم، وصار حقيقة شرعية وبندًا في العقيدة يهدي أصحاب القلوب الحية ذات النمط الأوسط إلى العدل في الحكم على الناس والتهيب من تكفيرهم بمجرد ولوغهم في المعاصي، مع أن بعض المبتدعة قد استنبط منه التعويل على كلمة الشهادة وعاف العمل.

وكذلك حديث ذاك الذي لا يزيد على الفروض ولا ينقص، الذي أفلح إن صدق، قد اغتر أناس بظاهره فاعتادوا ترك النوافل، ولكن ذلك لم يمنع البخاري من ذكره كحقيقة شرعية مقرونة بألوف من الأحاديث الصحيحة معه في الترغيب بالخير الزائد على مقدار الفرض، كما لم يمنع غيره من فقهاء الأمة من النص على فسوق من يهجر السنن المؤكدة هجرًا طويلا.

وقس على هذه الأمثال، وتأمل ما سبق ذكره من عوامـل الافـتراق بـين جيلنا الحاضر وأجيال السلف، لينفتح لك باب مفيد مـن الاقتنـاع بأهميـة الوقوف عند حدود الشرع في التمييز بين درجات المعـاصي، وتـصنيفها إلى كبائر ولمم، تخرج منه إلى واقعية تجبرك على مصاحبة الذين قـصرت هممهـم عن التملص من الصغائر، والرفق بهم، دونما إخلال بكلام تربوي واجـب تنصحهم فيه، غير متزمت، ولا لهم بظالم.

إن أخذ مجتمع الدعاة بالشدة في ذلك، وإشاعة عرف بالغ الحساسية إزاء الصغائر، ربما يؤدي إلى نفع عظيم في جودة معـادنهم، ويوصـلنا إلى نتيجـة تربوية جيـدة، ولكنـه بالمقابـل يـؤدي إلى جفلـة الجـدد وزهـد الـشباب في الانتماء، لقصور هممهم عن متابعة التعفف الكامل، وهي مفـسدة تعـارض تلك المصلحة التربوية، لابد من مراعاتها.

ومن المهم أن تفهم أن الذي نقوله ما هـو بتـسويغ للتهـاون، وإنـما هـو دعوة إلى الوقوف مـع الـنمط الوسـط الممـدوح شرعـا الـذي لا يجـنح إلى تفريط، ولا يرهقه الإفراط.

ومما يقارب هذه المسائل، ونستعمل له نفس التسويغات أمـر التـدخين؛ فقد يكون الشاب معتادًا له قبل مخالطته لدعاة الإسلام، ثم ينتمـي لهـم ولا يستطيع الفكاك من أسره، فنتجاوز عنه، والأصوب في أمر التـدخين –والله أعلم– أن لا نجزم بحرمته، ولكن نقول بكراته الشديدة، وأن عرف الدعاة لا يستسيغه، وجعلوا تركه شرطًا للعاملين.

ومثل ذلك ما اختلف فيه الفقهاء الأتقياء، إذا ملنا لرأي المتشددين منهم فيما اختلفوا فيه، كالتأمين، والبيع والشراء بالأقساط بثمن زائد على ثمن التعجيل، فإن لرأي المجوزين وجها يجعل مخالفهم أميل إلى القول بكراهة ذلك من جزمه بالحرمة الشديدة، وعليه ألا يسارع إلى تضعيف العامل بإفتاء مخالفيه، بل يقتصر على وعظه بالاحتياط والابتعاد عن الشبهات، إلا الاقتراض بالربا والاستفادة من قروض البنوك العقارية، فإن الذين ذكروا جواز ذلك قد صادموا النصوص الصريحة، وليس لقولهم وجه، ولا لهم من التقوى نصيب واضح يتقوى به خلافهم.

ويداني هذا الأمور ما يفتي به الداعية الحائز لبعض الفقه نفسه في أبواب الضرورات، فربما أحاطته ظروف صعبة يجرؤ معها على فعل شيء لا يجرؤ المفتي على الترخيص له به، فيعتمد هو على فقهه ، وما من شك في أن هذا الأمر دقيق للغاية، ويحتاج لاحتياط مضاعف ، ولكن حد التمييز بين المسموح لهم بذلك والممنوعين هو مقدار الفقه الذي يملكونه ، فمن آنسنا منه رشدًا، ودلت سابقات على حصول نصيب له من الفقه، فإنا لا نستكبر منه اجتهاده ونطيل له اللسان، بل نعظه بالتقوى والأخذ بالعزيمة فحسب.

أنصفونا معاشر النقاد

وأما السلوك الثاني فإنما يتمثل في واجب منتقدينا نحونا، فنحن نطالبهم بمثل هذه النظرة التي تتقبل أحسن ما عملنا، وتتجاوز عن نقصنا، ثم يدعون الله لنا بأن نكون من أصحاب الجنة.

ولقد أسرف بعضهم في الابتعاد عن هذه النظرة، فأحصى ما يظنه من أخطائنا، مما صدر عن آحاد من دعاة حركتنا، حاولوا الاجتهاد، فبعض أصاب، وبعض أخطأ.

ولو أردنا الاستقصاء في الرد على الشبهات التي يوردها المحصون، لوقعنا في المتاهة النفسية التي تراد لنا، ويكون ثمة انشغال عن وجوه النفع التي نحن ماضون في جلبها وتحصيلها كل يوم.

ولسنا نضيق صدرًا بنقد يوجه لنا ،ولا ندعي أن الله سبحانه قد حكر لنا الصواب، لكننا ننكر الخلفية المتوترة لمثل هذا النقد، الشبيهة بالفتنة.

والأساس في ردنا لكل ملاحظة وجهت وتوجه لنا أن الناقدين يغفلون مناقبنا، وجمالنا، وحسننا، ويجردون الأخطاء تجريدًا عما صاحبها من الإصابة، وقارنها من البذل.

إن للدعوة من خلال انتشارها في الأقطار العربية مناقب كثيرة، أقلها حفظ الشباب من الانجراف في المفاسد وإمدادهم بالسكينة الإيمانية، والطمأنينة القلبية في عصر الاضطراب، ولو لم يكن للدعوة إلا هذه المنقبة لكفاها ذلك فخرًا، كيف وأن مناقبها قد سارت كل مسار، فمن صحف تدافع عن قضايا الأمة، وترد على الملحدين، وكتب منهجية تعين الشباب على فهم الإسلام، وقتال اليهود والمستعمرين في فلسطين والقناة، وسعي في إعانة الناس على نيل العلاج الطبي وضرورات الحياة عبر عمل إغاثي واسع، وتوعية سياسية للأمة تقابل خطط الماسونية والصليبية، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر الطغاة الظالمين، وإشاعة للقرآن، وتحفيظه،

وتعليم آدابه، وإنشاء للمكتبات والمساجد، حتى أن الدعاة قـد تجـاوزوا في ذلك بذل أموالهم وأوقاتهم إلى بذل أرواحهم ودمـائهم، فـنقش الرصـاص صدورهم، والتفَّت الحبال على أعناقهم ، ولفظـت أنفاسـهم كريمـة تحـت السياط، وفي غرف التعذيب.

هذه فعالنا، وهذا تاريخنا، وحاضرنا من بعد مرئي مشاهد ، فلـم يكـون تجاوز هذه الصور الفاضلة، والمفاخر المشرفة لكل مـسلم صـادق الإيـمان، ويسعى الناقدون إلى حصر المسألة في جملة أخطاء رصدوها، على فرض أنها أخطاء فعلا ، وأن الدعاة ليس لهم فيها تأويل؟

والأصل في ذلك نقاء القيادات، وأهليتها للتصدي لمثل ما تـصدت لـه، وإنا لا نعلم بحمد الله فينا إلا كل قائد نجيب نبيل رفيع.

باب مفتوح لكل طـارق

أما الأتباع فلا ننكر أن فيهم من قد يخطئ في كلامـه أو تـصرفه، ولكـن لابد من الانتباه إلى مسألة مهمة جدًّا حين تقدير ما يصدر عن الأتباع، ذلك أن الدعوة ليست مجمعا للكاملين، وإنما هي مجتمع تربوي يـسعى إلى تربيـة كل وافد إليه إذا كان مبتعدًا عن الكبـائر، شريفـا في النـاس، وإذا قيـل: إن فلانا قد صار من جملة شباب الدعوة فليس معنـى ذلـك أنـه قـد اسـتكمل الإيمان وحاز العلم من أقطاره، ولكننا حين نصفه بذلك فإننا نعني أنـه قـد رضي بأن يربيه الدعاة، وأنه قد بدأ السير وفق المنهج الأصح.

وعلى هذا فإن الأتباع، وحتى القادة، متفاوتون في كمية حيـازة خـصال الإيمان وعلوم الشرع التي تجعل أعمالهم صائبة، فمـنهم المبتـدئ الـذي قـد يخطئ، ومنهم المتوسط في ذلك، ومنهم الذي كثر خيره، وعبق عطره.

وليست دلالة القدم أكيدة في ذلك، وإنما هي طاقات مختلفة من التحمل والصبر والذكاء والشجاعة، ولربما تجد القديم في منـازل المبتـدئين مراوحـا إذا لم يكن له مقدار وافر من هذه الخصال الابتدائية، فقد يخطـئ في تعاملـه، أو في كتاباته وأقواله.

وأمر التجميع وقبول الأتباع في الصف يعتمد إلى حد كبير على الفراسـة عند المربين والقادة، والفراسة من شأنها أن تصيب أو تخطئ، والقاعدة التي نتبعها: أن نفتح بابنا لكل طارق أمين مهما قل خيره، طالما جاءنـا طامعـا في أن يقف في صف صلاتنا خلف إمامنا.

نحاسب بالحسني ولا نفضح

والحقيقة أن أكثر أخطاء الأعضاء محاسبون عليهـا، وتـشهد عـلى ذلـك قصص فيها مفخرة للقيادات في حرصها على الحسبة ونقاء الصف، وتقويم الاعوجـاج، ولكنهـا لا تـذيع ذلـك أو تنـشره، لأن في المقـصرين الـذين حوسبوا شُعَبا وأنواعا من الخير لا يراد لها أن تضمحل أو تموت بالتـشهير، ولو أذاعت القيادات محاضر محاوراتهـا لأمثـال هـؤلاء المقـصرين، معاتبـة ومرشدة ومنبهة لهم، لوقعت في الخطأ الذي نعيبه هنـا، ولكنـه الـستر عـلى أهل الخير يستغله الناقدون بلا علم، فيقدمون على الجرح والقـدح بجـرأة،

في موطن تهيبت فيه القيادات واستحسنت الهدوء في معالجة الأمر الذي هيَّج الناقدين.

لا نرضى ببدعة

وفي الواقع أن أكثر الانتقادات التي توجه يمكن ردها بسهولة، ونستطيع أن نقنع المنتقد بوجهة نظرنا إذا كان سليم الطوية، صادرًا عن حب في الإصلاح ما استطاع.

وخذ مثلا في ذلك ما يشاع عن الجماعة من أنها لا تحارب البدع، مع أن كل ناظر إلى سيرة الإمام حسن البنا رحمه الله يدرك صفاء عقيدته، وبعده عن البدع، ومحاربته لها، وكفاه بالأصول العشرين وثيقة يضعها بين يدي ربه تعالى ؛ يحاجج بها ويدلل على قيامه بواجبه السني الاتباعي إزاء الابتداع، ومازالت جماهير المنتسبين إلى دعوته تتدارس هذه الأصول وتشرحها، وتنشرها بين الناس.

السياسة كلها ترجيح بين المصالح

ويتداول حديث عن أخطاء سياسية ترتكبها القيادات، وما هي بأخطاء في حقيقتها لمن أمعن النظر، لكنه تفضيل بين المصالح، واتباع لقاعدة الفقهاء في الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضهما، ولو بتفويت أدناهما، واحتمال أيسر العارضتين لإبعاد أعظمهما وأكبرهما.

ولقد أطال الإمام ابن تيمية رحمه الله النفس في بيان هذه القاعدة وتـصويبها والأمر بالعمل بها، حتى أنه أفتى في هذا الباب بإفتاءات يظنها مـن لا يخـبر السياسة غريبة معيبة.

وأغلب هذه المواقف المنتقدة على الحركة مخرجـة عـلى هـذه القاعـدة في الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المـصالح والمفاسـد، فـما مـن تعاون مع حزب معيب، أو تصريح بثناء على فعلة حسنة مـن حـاكم لم يـتم إسلامه ، أو ما شابه ذلك، إلا وللقيادات فيها تأويل مـستخرج وفـق هـذا الإفتاء.

ولا ندعي أن كل هذه التـصرفات المعتمـدة عـلى هـذه القاعـدة كانـت صوابا دومًا في نتائجها، فإن ذلك ليس ركنا في توثيق المسلم، إنما هو يجتهـد في باب السياسة كما في غيرها، فيصيب ويخطئ تبعا لمدى فراسـته، وطويـل تجربته، إنما الركن المهم هـو أن هـذا التأويـل والاجتهـاد يـستند إلى أقـوال معتمدة في مذاهب أعيان الفقهاء القدماء.

ومع ذلك فلا يمكن للقيادات على طول الخط أن تكشف حوارها حـين تقرير مثل هذه الخطوات القائمة على الموازنة بين المصالح والمفاسـد ؛ ذلـك لأنها قد تعتمد عل أسرار لا يسوغ كشفها، أو تسويغات مضمرة لا تريد أن يتسرب علمها إلى أعداء الإسلام، فيحورون خطتهم العدائية تبعًا لذلك.

وقد جرى العرف عندنا على الاسـتقلال في العمـل، والـدعوة إلى زوال الأحزاب، ومقارعة الظـالمين، ومـضت هـذه المعـاني أصـولا في التخطـيط

السياسي، وأفصح عنها كلها الإمام البنا ﷺ في رسائله، ولا تكون موازناتنا بين درجات المصالح إلا على ضوء هذه القواعد.

فأنصف أيها الناقد، ذلك خير، وكفاك هذا أيها الداعية، لا تطلب الرد حرفا بحرف، فإنها متاهة والله متاهة الردود... وعوائق.

إن هذه الانتقادات الجزافية هي من جهل الناقدين، وقلة إنصافهم، ولولا أن البعض من علماء الأمة قد ابتلي بمثل هذا الأذى المعنوي على مر العصور لظننا أنه عقوبة ربانية تحيط بنا، ولكن يبدو أن مثل هذه التشويشات والفتن سنة من سنن العمل الإسلامي، والعاصم منها أن ندعو بدعاء النبي ﷺ فنقول: **" اللهم إنا نعوذ بك من أن نجهل أو يجهل علينا"**.

* * *

obeikandl.com

كلمـــة أخـــيرة

وبعد أيها الداعية :

فإنا قد أطلنا الكلام لك عن الفتن وأسبابها واتقائها، بعدما رأينا مـا لهـا من ضرر على الدعوة الإسلامية يعرقل تقدمها.

والمنتظر منك أن تخلو إلى نفسك، بعيـدًا عـن الـضوضاء، فتتأمـل هـذه الجمهرة النافعة المفيدة من الآيـات والأحاديـث، وأقـوال العلـماء وأبيـات الشعراء، وتعيد قراءتها مرة بعد مرة، وتطابق بينها وبين ما ترى من معاصي المفتونين، لينفتح لك باب عظيم من فقه السلوك.

وإنما هي العرقلة فحسب، ولا تبلغ الفتن أبعد من ذلك أبدًا، ودعوة الله محفوظة سائرة إن شاء الله.

فلـيس لأمـر حـاول الله جمعـه مـشت، ولا مـا فـرق الله جـامع

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وأن يرينا من قصص المفتتنين مصداق ذلك.

فمن أطرف ما يروى في ذلك أن أحـد المحـررين في المجلـة الأسـبوعية للجماعة شذ ، فنفته الدعوة ، فأصدر مجلة أخرى تحدِّيا وضرارًا.

قال الإمام البنا:

(فدعاها هو "الخلود"، وقضى الله عليها بالفنـاء، فلـم يـصدر منهـا إلا عدد أو عددان، وانتهى أمرها، وكذلك الباطل لا بقاء له، والبغـي مـصرعه وخيم)[1].

(1) مذكرات الدعوة والداعية/ ١٣٤.

ودعوة الإسلام اليوم تقف شامخة عالية منتصرة في جولتها مع الطغاة.

والدعاة في كل بلاد الإسلام كثير عددهم، نقية عقيدتهم وليس النقص الحاضر نقص عدد ولا نقص إيمان، ولا ذلك هو ما يحول دون الوصول.

لكنه:

* العمل الساذج... ويعالج ببث الوعي
* وطول الأمل... ويقصر بذكر الموت
* وظلام العوائق.. ويبدد بأنوار الفطنة

وتتبلور هذه الأنوار جميعا وتتركز، لتكشف عن أصل رئيس من أصول دعوتنا، يعلن أن:

(القائد جزء من الدعوة، ولا دعة بغير قيادة، على قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة وإحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها، وتغلبها على ما يعترضها من عقبات وصعاب.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢٠](١).

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [محمد]....

* * *

(١) رسالة التعاليم/ المجموعة/ ١٩.